الى الجبـــال

قلت لكريم:

-ما رأيك أن نمضي هذه الصيفية في الجبال؟ نستأجر بيتا في منجع صيفي قـرب الأرز..

-ليس للطبيب النسائي إجازة صيفية طويلة، ففي كل دقيقة يولد في بيروت طفـل، وقلة من النساء تتعسر ولادتهن، وأقلّ منهن من تلجأ الى مشفانا المرتفع التكاليف..

احتجت أسماء وقالت:

-أوافق أن آخذ إجازتي بكاملها وأذهب الى الجبال، فعدد من الطبيبـات يمكـنهن الحلول مكاني.. أنا بحاجة اليها اذ يتاح لي أن أتريض فتسهل ولا دتي..

تساءل كريم فيما اذا كان عبد الرحمن سيرسل وسيم وجهاد فأجبته:

-لا، لن يرسلهما هذا العام، فجهاد بحاجة الى دورة صيفية باللغة الفرنسية ووسـيم سينتسب الى ناد لكرة الطاولة فيمضي وقته بين المطالعة واللعب..

-لا بأس اذن.. لي زميل مسيحي توطدت بيننا صداقة، أهله يسكنون عند نبع مـار أنطلياس، ولقد دعاني لزيارته، يمكنني أن أستعين به لإيجاد سكن مناسب، وأذهب وايـاه أواخر الأسبوع للإستجمام هناك..

أخذنا بالإستعداد للصيفية، وتزودنا بحاجاتنا من علب الكونسروة وأنواع المربيـات التي تصنعها فريدة في مواعيدها، ومانحتاجه لفطورنا من تموين البيت.. وأخذت معـي كوبيوتري والمسجل والفيديو والأشرطة التي أحبها.. وأخذت نورا كمنجتها والهرمونيكا، وكل ما أهداه لها والدها من لعب وأشرطة فيديو في عيد ميلادها، واشتريت لهـا كتبـا وقصصا تطالعها وتتسلّى بها..

كان لعائلة الطبيب حفيدتان، واحدة في مثل سن نورا والأخرى تكبرهـا بعـامين، هنرييت وجورجيت.. وكانتا تحبان الموسيقى ولديهما أكورديون تعزفان عليه.. وانسجمت نورا معهما وطورت مهارتها الموسيقية، وحفظت منهما أغان بالفرنسية.. وكثيرا ما كنا نصطحبهما معنا في نزهاتنا أنا وأسماء، وذات يوم تشاجرت الأختان، وسمعت الأخـت الكبرى تقول للصغرى:

-خيتي، شو نحنا اسلام حتى نتقاتل؟

نظرت الى أسماء فوجدتها تبتسم هي الأخرى، فقلت:

-يحسبوننا موارنة مثلهم لأننا سافرات..

-التعصب الطائفي يصل الى الجبال!

سألتني نورا حين عدتا الى البيت:

-ماما، مامعنى كلام جورجيت "نحنا اسلام حتى نتقاتل"؟

لم أذكر يوما أمام نورا شيئا عن الخلافات الطائفية لأرسخ عندها جـوهر الأديـان التي هي وحدة واحدة لتحرير الإنسان:

-حبيبتي، الناس في لبنان على مذاهب، نحن مسلمون وهم مسيحيون..

-هل هم أفضل منا؟

-لا.. الإنسان يرث دينه منذ مولده، وكل الأديان ذات جوهر واحد تربي الإنـسان على الفضيلة ومكارم الأخلاق..

-هل نحن نتقاتل؟

-الطوائف عندما تنحرف عن جوهرها تقتتل فيما بينها، وكلنا في هذا سواء مسلمون ومسيحيون..المسلمون ينقسمون الى سنة وشيعة ودروز، والمسيحيون الـى أرثـوذكس وكاثوليك وموارنة وبروتستانت وأرمن..وكلها تقتتل فيما بينها.. أما العاقل فلا يتعـصب لطائفة ويحافظ على مكارم الأخلاق التي جاءت بها كل الأديان..

-ماما، لا أريد أن أصادق هنرييت وجورجيت وأرغب في العودة الـى بيـروت.. هناك لا يسألني أحد أنت مسلمة أو مسيحية!..

-سنعود قريبا حين تحين ولادة تانت أسماء..

أسمع غرابا ينعق فأتطير، يموت المنطق حين نحادث صغارنا، لا يفهمـون كيـف يقفز الدم نحو القمر.. تطعن براءتهم بنصل مسموم منذ الصغر وبدل أن يـصغوا الـى هديل الحمائم وزقزقة العصافير وتغريد العنادل لا يطرق سمعهم الاّ نعيق الغربان..كيف نجنب أطفالنا مأساة الواقع اللبناني التي نبعت من طوائفه الثمانية عشرة التـي تقوقعـت واقتتلت فيما بينها؟ كيف لنا أن نحمي المستقبل من جراح الماضـي، ويعـود التـوازن والميزان الى لبنان؟؟

لم تطل إقامتي في المنتجع حين تلفن كريم الي وقال:

-ان ليديا أصيبت بحادث، وهي في المشفى عندنا وحالتهـا خطـرة وتلـح علـى رؤيتك..

أخبرت أسماء بما جرى وأنا أرتجف ، ولما سألتني نورا عن الأمر قلت لها "حادث أصاب موكلة عندي وهي تريد رؤيتي..

-خذيني معك الى بيروت!

-لا أستطيع التفرغ لك، انني سأعود في الحال بعد أن أنتهي من عملي.

طوال الطريق وأنا أقود السيارة كنت أفكر فيما تنبأت به أسماء أن ليديا في خطـر، وأن من حرمها الإنجاب لن يكفّ عن قتلها ليرث ثروة عمه.. كان كريم ينتظرني عنـد باب المشفى..

-انها في العناية المشددة، ولكنها صاحية وتلح في رؤيتك..

عانقتها وقلت:

-ليديا سلامتك..ماذا جرى لك؟

-أريد أن أرى وسيم..أريد أن أقبله وأقول له أني أمه قبل أن أموت..

-لا، لاتقولي هذا، ستشفين! سأتلفن لعبد الرحمن أن يرسله على الفور..

-فعل ذلك كريم.. وهو ينتظر قدومك حتى يكون في المطار عند وصول الطائرة!

أمسكت بيدها وسألتها:

-ماذا تشعرين؟

-لاأدري..لعلهم أعطوني مسكنا! أريد أن أبقى صاحية.. ابق قربي لا تتركيني!

-لن أتركك يا داليا!

-أريد أن تكتبي لي وصيتي الأخيرة في أن كل ما أملكه وما جاء في الوصية التي أودعتها عندك هي ملك لإبني وسيم عباد، ويشهد على الوصية جمع من أطباء المستشفى أخرجت من محفظتي ورقة وقلما وكتبت لها ما أرادت، وقطرت على باهمها نقطة حيـر وجعلتها تبصم على الورقة، وتوقع اسمها.. واستدعيت كريم ليدخل، فأشـرق وجههـا، وتركتهما معا وانتحيت جانبا على كرسي، وقد كبر في قلبي الحزن والخوف الموجع..

أمسك كريم يدي ليديا فقالت له:

-هل أحببتني كما أحببتك؟

-أنت حبي الأول يا داليا، ولا يزال مشتعلا في قلبي حتى الساعة..

-قبلني يا كريم ودعني أشعر بملمس شفتيك على شفتي..

وقبلها كريم بلهفة وحنان بالغ:

-ما أطيب العطر الذي يفوح منك!

-متى تصل الطائرة بوسيم؟

-الرحلة تأخذ خمس ساعات، مضى ساعتان منها..

-أنا مشتاقة أن يجتمع حولي الأب والإبن الحبيب، وأقول له "أنا أمك وهذا أبوك يا حبيبي.. جمعنا الحب وفرقتنا الظروف القاسية، فلعله يغفر لي وتكون ذكراي عطرة فـي حياته بعد موتي"..

-لا، ياداليا، ساعدي غريزة الشفاء ولا تيأسي من رحمة الله..

-أشعر بالموت يقترب مني، ولا أرجو من الله الاّ أن يمهلني لأودع ابني..مـابي؟ الوصية، أين نبيلة ؟ الوصية!

-أنا هنا يا داليا..

-يجب أن يحضر الأطباء ليكونوا شهودا على الوصية! قلت لكريم:

-كريم، أستدع بعض زملائك العرب ليكونوا شهودا على الوصية..

-عن أية وصية تتحدثين؟

-تلفن لهم، وسأقرأ الوصية التي استكتبتني إياها ووقعتها أمامهم.

استدعى كريم ثلاثة أطباء بينهم صديقه الذي ننزل في المنتجع في قريته، وقال:

-سأترككم، فقد حان الوقت لوصول طائرة وسيم..

قمت بما طلبته مني داليا من قراءة الوصية، وتوثيقها بشهادة الأطباء الذين فحصوها ووجدوا أنها بكامل وعيها، وما لبث أن دخل رجال مـن الـشرطة لاسـتجوابها وأخـذ إفادتها..

-الإسم..

-داليا ديب.

-متزوجة؟

-نعم، زوجي النائب هجرس.

-كيف جرى الحادث؟

-ذهبت الى مكتب المحامية السيدة نبيلة عباد لأستشيرها بأمور خاصة بي فلم أجدها في مكتبها، فذهبت الى مشفى الجامعة الأميركية لأسأل عنها قريبتها الـدكتورة أسـماء وكنت أعرفها قبل أن تتزوج الدكتور كريم عباد..

-وجدت سيارتك مقلوبة قرب المشفى وأنت فيها مغمى عليك كما أفاد شاهد عيـان كان مارا صدفة فاتصل بالمستشفى فهل تذكرين ما جرى

-لاحظت شاحنة تسير ورائي منذ خرجت مـن المكتـب، ثـم أخـذت تطـاردني فأسرعت، وأسرعت هي الأخرى فحاذتني ثم دفعت بي بقوة الى جانب الطريق، وفقـدت وعيي ولم أعد أذكر شيئا بعد هذا..ولم أصح الاّ وأنا هنا في العناية المشددة..

-هل شاهدت سائق الشاحنة؟

-لا، لم يكن لدي وقت لأتبينه..

-أتشكين بأحد؟

-نعم بابن أخي زوجي.. وهو طبيب، فلقد سبق له أن آذاني..

-كيف آذاك؟

-أجرى لي عملية استئصال المبيضين دون استشارة أهلي مستفيدا من غياب زوجي ولما عاد أخبره أن العملية كانت ضرورية لإنقاذي من السرطان الذي كان سينتشر فـي أنحاء جسمي..

-ماسم هذا الطبيب؟

-اسمه

-ما الدافع له؟

-انه الوحيد الذي يرث زوجي إن لم أنجب ولدا..

-وما هو الدافع له الآن؟

-كتب لي زوجي نصف ثروته والبيت الذي أسكنه.. والوصية الموثقة عند كاتـب العدل، نسخة منها عند المحامية نبيلة والأخرى عند أمي..

انتاب داليا شعور الوهن فلقد استنفذ التحقيق طاقتها، وخشيت عليها أن تصاب بحالة العجز الكلوي قبل أن يصل كريم ووسيم..

كان الأطباء قد انسحبوا واحدا بعد الآخر الى أعمالهم وبقي الطبيب الـذي أشـرف على حالة داليا الصحية فحادثته بالإنجليزية عن مخاوفي، فقام وفحص نبضها وارتفـاع ضغطها وطلب من المحقق ورجال الشرطة المغادرة لأن المريضة لا تحتمل المزيد مـن الإنفعال والجهد.. أخذت تسأل بوهن..

-أما وصلت الطائرة بعد؟

-انني أتصل بالمطار مع كريم، وهو ينتظر..

-أشعر بوهن في قلبي، أناخائفة أن أموت قبل أن أرى ابني وسيم..

أخذت حبات العرق تندي جبينها فقالت:

-انني أعرق.. يغسلني العرق!

-الجو حار.. كلنا نعرق..

وأخذت بمسح حبات العرق التي تبض من جبينها ووجهها..

-أعطني عطري من حقيبتي، لا أريد أن يشم وسيم الاّعطري..

وجلست قربها أمسح العرق بيد وأرش عليها العطر بالأخرى، وانتشر في الجو ذلك العطر المميز الذي قال لها كريم عنه وهو يقبلها "ما أطيب العطر الذي يفوح منك!"

قال لي الطبيب الذي يراقب حالتها بقلق بالغ:

-ان كليتيها تالفتان من أثر الصدمة، ولهذا يبض جسدها بهذا العرق الغزير..

تلفنت الى المطار وعلمت من كريم بأنه سيكون في المستشفى بعد مسافة الطريق..

التفت الى داليا أبشرها وأشد عزيمتها، ولكنها كانت أوهن من أن تعي ما أقوله، وما لبثت أن غربت عيناها وهوت في بحر الغيبوبة العميق..

-ألا سبيل لإنعاشها يا دكتور؟ سألت بجزع.

-أتركيها بسلام.. قد تبقى فترة من الزمن حتى تفارق الحياة..

أمسكت بيد داليا وأنا أنظر الى جهاز الكومبيوتر الذي يسجل دقات قلبها:

-هل تسمعيني يا داليا؟ يجب أن تصحي من غفوتك لتري وسيم ، ان كنت تحـسين بي وأنا أمسك بيدك فاضغطي قليلا على يدي لأعرف أنك تسمعيني.

وكانت داليا تستجيب لندائي، ويخيل الي أنها تضغط يدي.. أخذت أفـرك قـدميها اللتين سرت اليهما البرودة لأساعد غريزة الشفاء على يقظتها ولو لفترة قصيرة تودع فيها وسيم..

-دكتور انها تسمعني ، انها تحرك قدمها، وتضغط على يدي حين أمـسك بيـدها.. لعلّ معجزة تحدث في جسدها فتعود الى الوعي..

وكان الطبيب ينظر الي باستغراب دون أن ينبس ببنت شفة وعينـاه تنـتقلان الـى شاشة الكومبيوتر لتشهدا صراع القلب الواهن قبل أن يستسلم ويفارق الحياة..

كان الكومبيوتر لا يزال يسجل نبضات قلبها الواهن حين دخل كريم ووسيم المشفى:

-لماذا تريد صديقة أمي أن تراني وحدي ولا ترى أخي جهاد؟

-لأنها تحبك أكثر.. كان هذا طلبها حين نقلت الى المشفى عندنا وأخبرني الطبيـب الذي أشرف على علاجها بأن حالتها خطرة وساعاتها معدودة..

-أعرف أنها تحبني أكثر من جهاد، ولكنها حين زارتنا في باريس تصالحت معـه، وطلبت منه أن يسامحها، وقالت له أنها أحبته كابن لها لأنها حرمت من الأطفال..

ربما يا وسيم يخيل اليها أنك ابن حقيقي لها..فمهما قالت علينا أن نحترم مـشاعرها ونلبي طلبها الأخير لأنها راحلة..فحاجة الإنسان الأخيرة تلبى عادة ولو كـان محكومـا بالإعدام..

بكى وسيم حين دخل الغرفة وقال:

-انني أحببتها كثيرا كأنها أمي، وأحزنني كثيرا ما أصابها حزنا شديدا.. لا أريـدها أن تموت، ومهما قالت أو تخيلت بأنني ابن حقيقي لها، فلن أحرمها هذه السعادة.. قلـت له:

-لاتزال على قيد الحياة.. قلبها لا يزال ينبض وهي تسمعك.. قل لها "ماما، أنا ابنك وسيم" كانت هذه الكلمات هي التي تريد أن تسمعها منك قبل أن تغيب عن الوعي..

أمسك وسيم بيدها يقبلها:

-ماما، حبيبتي، أنا وسيم افتحي عينيك وانظري الي، لماذا تنامين ولا تكلميني؟

انتفضت حركة القلب على الكومبيوتر، وخيل الي أنني أشهد بـسمة علـى شـفتي داليا.. التقى أمامي وجهان متشابهان: وجه يبتسم ووجه باك، ثـم توقـف القلـب عـن الخفقان..

-ماما، لاأريدك أن تموتي فأفقد أمي مرتين!

وأجهش وسيم بالبكاء..

* * *